جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

مقياس: حلقات البحث

إعداد الأستاذ: لخضر بولطيف

مستوى: السنة الثانية ماستر – تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

الموسم الجامعي: 2022/2021

المحاضرة (02):
الموضوعية في البحث التاريخي بين الحياد والتحيز
(القسم الأول)

مدخل:

لطالما عُدّت الموضوعية رديفا للحياد في مقابل التحيّز، ما يجعل صدور الباحث عن قناعات فكرية مسبقة أمرا مستهجنا، لما له من أثر قادح في موضوعية الباحث. على أن كثيرا من مثل هذه المسلّمات أضحت -اليوم- محل مراجعة.

الموضوعية والحياد:

غالبا ما يجري استخدام "الموضوعية" في مقابل "الذاتية"، وكأنما هي "العقل" في مقابل "العاطفة"، مع أنها في واقع الأمر لا تنفك عن العقل والعاطفة معا، ذلك أن العواطف السامية والصادقة لا يمكن لها أن تخل بالموضوعية في شيء. كما أنه من المألوف لدى الباحثين أن يأتي لفظ الموضوعية رديفا أو على الأقل مقترنا بلفظ الحياد. فهل من مقتضى الموضوعية أن يكون الباحث محايدا غير منحاز؟

يفهم الحياد على أنه الوقوف على مسافة واحدة بين أمرين، بحيث لا ينحاز إلى أحدهما دون الآخر، وفي ذلك ضمان لأن يكون متزنا في موقفه، منصفا في أحكامه، متحررا من الوقوع تحت تأثير هذا الطرف أو ذاك من طرفي المسألة.

لكن السؤال المؤرّق أنه ما دام ثمة جهاز مفاهيمي يصدر عنه الباحث، فهل يمكن مع ذلك أن يبقى على المسافة نفسها في مقارباته للحوادث والوقائع؛ بين ما هو خير وما هو شر؟ وبين ما هو حق وما هو باطل؟ وبين من هو في موقع الظالم ومن هو في موقع المظلوم؟

وهنا يحضرني ما تعقّب به المؤرخ الجزائري الكبير أبو القاسم سعد الله -رحمه الله- أطروحة تلميذه السابق عبد الحميد زوزو، التي بعنوان: "التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لإقليم الأوراس (1837-1939)"، وكان قد أنجزها في فرنسا بإشراف الأستاذ شارل روبير آجرون، وذهب فيها مذهبا من الموضوعية يشبه أن يكون رديفا للحياد الذي استشكلناه أعلاه، فإذا هو يتحدث عن التعايش في ظل الجزائر المحتلة بين مجموعتين: المجموعة الأوروبية (الكولون)، والمجموعة الأهلية (الأندجين)، مما يمثّل تجنيا على الحقيقة بحسب سعد الله، وإعمالا للحياد في غير موضعه. وإليك نص تعقيبه (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 5/302-304):

«وهناك بعض الملاحظات التي شدت انتباهنا في أطروحة الأستاذ زوزو، والتي نود أن نلفت إليها النظر. فهو يقول منذ البداية: إنه لن يكون له حكم مسبق ضد المستعمِر (بالكسر)، كما ليس له غرض لصالح المستعمَر (بالفتح). ويعلن بصراحة أن هدفه من البحث ليس محاكمة المستعمِر (بالكسر)، ولا التماس العذر للمستعمَر (بالفتح)، وأن هدفه الوحيد هو فقط دراسة الملامح والعلاقات التي كانت بين "المجموعتين" (كذا) خلال عهد طويل من "التعايش" استمر أكثر من مائة سنة. وللوصول إلى هذه الدراسة **المحايدة** لجأ الأستاذ زوزو إلى الأرشيف، فأنار له الطريق، وجعله يوازن بين المعتقدات القديمة وبعض الأساطير التي زينها الاستعمار والنوايا السيئة.

إن بعض العبارات والمصطلحات السابقة تحتاج إلى مناقشة ولو سريعة. صحيح أن الباحث قد ينطلق من موقف **محايد** ومجرد حتى لا يقوده الرأي المسبق أو الهوى الشخصي أو الحزبي إلى نتيجة مسبقة أيضا. ولكن نتيجة الدراسة **المحايدة** قد لا تنتهي نهاية **محايدة**، أو بالأحرى قد تكون موضوعية قاسية. ألا يبدأ القاضي النزيه **محايدا** بسماع المدعى عليه والشهود، والاطلاع على جميع البينات والوثائق، ثم يصدر حكمه "**الموضوعي**" بالقصاص، الذي يصل حد الإعدام أحيانا؟ والمؤرخ القاضي قد يبدأ **بالحياد**، ولكنه بعد الحصحصة والتوثيق اللازمين "لا يصدر أحكاما **حيادية**"، وإنها يقتص للمغلوب من الغالب، والمظلوم من الظالم، إذا كان -طبعا- مؤرخا وقاضيا نزيها.

وقد لفت نظرنا -أيضا- عبارات نراها مطاطة، وفيها الكثير من المجاملة، التي قد تكون على حساب العلم، ذلك أن زوزو قد انطلق من الشعور بأن منطقة الأوراس كانت محرومة من ضوء التاريخ، ومهملة في مسيرة العلم والمعرفة، ومظلومة اقتصاديا إلى درجة العظم. ومع ذلك يبدأ عمله بقوله: إنه ليس له غرض في إنصاف المستعمَر (بالفتح) من المستعمِر (بالكسر)، ولا الوقوف في صالح الأول ضد الثاني. فهل كان تعامل الاستعمار الفرنسي مع أهل الأوراس قضية تخفى على الباحث، ولا تظهر له إلا يوم عكس المعلوم بالضرورة، وهو أن الفرنسيين لم يستعمروا الجزائريين، وإنما هؤلاء هم الذين استعمروا الفرنسيين. وما رأيكم في عبارة : "المجموعتين"، هذه التي تعني في مصطلح ذلك الوقت: الأهالي والأوروبيين أو الأندجين والكولون. إن عبارة "المجموعتين" كانت مصطلحا شائعا عندما كان الفرنسيون يرفضون وجود الشعب الجزائري، ويعتبرون الجزائر مسكونة بمجموعتين متساكنتين (أو متعايشتين كا عبر عن ذلك الأستاذ زوزو)، حكم عليهما القدر أن يعيشا معا تحت العلم الفرنسي، وقد كانت العبارة شائعة لدى النخبة، وفي أقلام الساسة الفرنسيين، وحتى لدى الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان يعتبر الأمة الجزائرية ما تزال في طور التكوين -من المسلمين والأوروبيين معا- ولكن إذا كان استعمال مثل هذه المصطلحات جائزا وشائعا في الثلاثينات، فكيف يبقى مستعملا ومقدما بطريقة محايدة بعد ثلاثين سنة من عمر استقلال الجزائر؟».

الموضوعية والتحيز:

هل يُتصوّر الجمع بين الموضوعية والتحيز؟ سؤال قد يكون من البدهي أن نسارع إلى الإجابة عنه بالنفي، لما استقر في وعينا من أن الباحث لا يمكنه أن يتحقق بالموضوعية إن هو لم ينفصل عن قبلياته وخلفياته ومنطلقاته الفكرية، لما لها من تأثير بيّن في آرائه وأحكامه وتخريجاته. لكن ذلك سيفضي بنا إلى سؤال إشكالي، وهو: هل يمكن لأي باحث (أي لعقله) أن يقارب قضية ما أو ظاهرة ما، من فراغ؛ أي بمعزل عن أي مؤطرات فكرية ومرجعيات تصورية؟

إن القول بالمقاربة من فراغ أمر غير واقعي، وغير قابل للتصديق، وإن زعم زاعم أنه يسعه أن يفعل، أو أنه فعل، فالأمر لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام التي تتلاعب بعقل الباحث، وتلبّس عليه، بينما الذي يصير إليه الحال في أوضاع مماثلة، وهو أن الباحث الذي يقوم بعزل نفسه عن أبجدياته الفكرية المعلومة، فإن أبجديات فكرية غير معلومة تتسلل في غفلة منه إلى عقله، وتمارس من التأثير -إبان المقاربة الفكرية- ما كانت تمارسه أبجدياته المعطلة، وفيما أنه كان بوسعه أن يراقب تأثير هذه الأخيرة على

طريقة تفكيره، وحصيلة مخرجاته، فإنه لا يسعه أن يدرك الكيفيات التي تمارس بها الأبجديات الفكرية البديلة تأثيرها على مستخلصاته ونتائجه، وثمة مكمن الخطر.

إن بقاء الباحث -في تقديري- وفيا لمنطلقاته الفكرية، ومرجعياته الدينية، إن كانت من صنف "الإيمانية التوحيدية"، وانحيازه بالتالي للاحتكام إليها، واستصحابها في مقارباته الفكرية، لا يمكنها، والحال أنها تُعلي من قيم الحق، والعدل، والخير، والجمال، والوفاء، والبذل، والإباء، والتضحية، وما إلى ذلك من القيم الإنسانية الراقية والنبيلة، سوى أن تجعل المؤمن بها، الصادر عنها، أقرب إلى تحري الحقيقة، والتزام الإنصاف. بل إن المنطلق الإيماني التوحيدي -وهنا تكمن فاعليته- يهيئ صاحبه لأن يكون متساميا فوق ميوله وأهوائه، فلا يزيف الحقائق، ولا يلوي أعناق النصوص، خدمة لانتماءات عرقية أو طائفية أو حزبية، كما هو مشاهد من حال كثير من الكتبة الذين يرفعون شعار الموضوعية، في حين هم يسعون لتحقيق مكاسب مادية أو شغل مناصب سياسية، وهم لا يترددون في سبيل ذلك في وضع أنفسهم بخدمة جهات مغرضة أو مؤسسات مشبوهة.

وخلاصة القول:

إن الباحث المؤمن الموحّد هو أدعى الناس لأن يكون موضوعيا فيما ينجز من أبحاث، ويباشر من مقاربات، وهو وإن لم يكن واردا ضمن قناعاته التزام جانب الحياد فيما يأتي أو يذر، فإن انحيازه دوما يكون لما يراه حقا وعدلا وخيرا، وهو لا يتردد في التزام ذلك الجانب الصائب، حتى ولو تعارض مع مصلحة يرجو تحقيقها، أو انتماء يشفق عليه من أن يُخدش أو يُقدح فيه. إنه الباحث الذي يضع بين عينيه -فيما يعارك النصوص والآراء- قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾.